

الباحث: محمادي هرنان



### المجال ... والانسان

ينحصر المجال البرنوسي من الأرض الخصبة والصالحة للزراعة في مساحة ضيقة، ففي المقدمة، هناك الجبال والأحراش والغابات، ثم الهضاب التي كان على السكان تطويعها، وجعلها قابلة للحث ، بإخضاعها لعملية أولية لإزالة الأحجار والدوم وكل نباتات البرية، مثل الكندول والسدره ... أما "السهول" فضيقة جدا، ولا توجد إلا على شكل أشرطة ساحلية قرب المجاري الموسمية للماء.

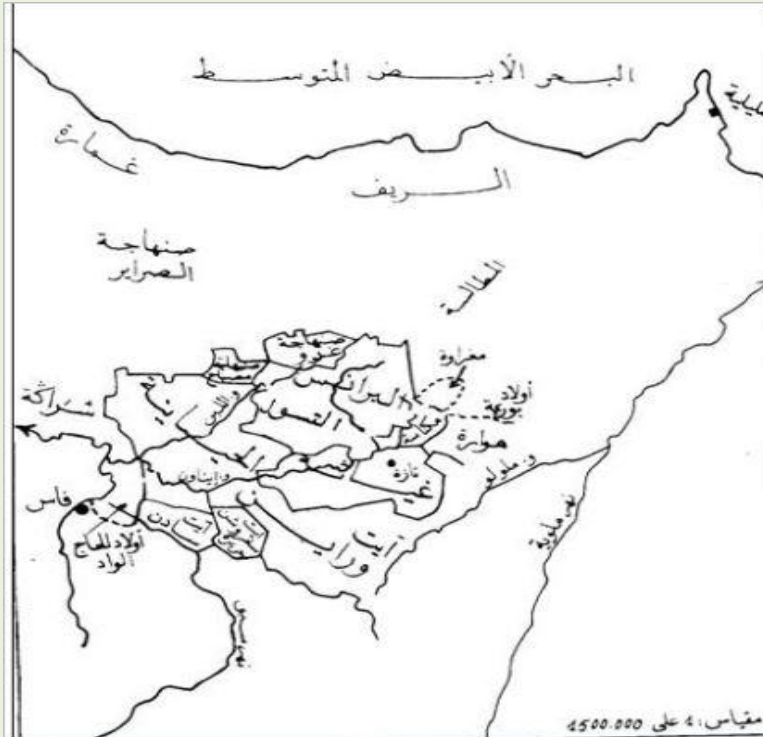
هذا المجال الضيق لا يمكن أن يساير التكاثر المضطرب للسكان، ما جعل العديد من العائلات تهاجر في فترات متفرقة من ربيعي أوربة وبنو بوعلا، وحتى من قبيلتي مرنيسة وصنهاجة والريف إلى ربيعي بني فقوص والطايفة على الخصوص. وسيعمل هؤلاء المهاجرون على تطويع الأرض الجديدة المكونة من الغابات والأحراش، كي تكون صالحة للزراعة وغرس الأشجار. وهنا يحضر نموذج فرقة اولاد جرو الممتدة من جوار باب المروج الى قبيلة مكناسة الشرقية/سبت بوقلال التي استقبلت

العديد من العائلات في وقت سابق يناهز قرنين من الزمن.

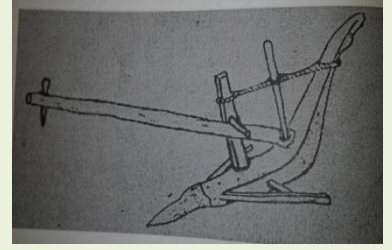
عدا عن مختلف الأشجار المثمرة وتربية الماشية والدواجن، نجد النشاط الزراعي يركز على الحبوب والقطاني (شعير، قمح، ذرة، فول، عدس، حمص، كرسانا) ونادرا ما تكون الأرض محفظة، لكن نجد الملكية وبشكل كبير موثقة برسوم عدلية تعود الى الجد الأول أو الثاني... تقتسم بين الورثة كعائلة وليس كأفراد، كل عائلة وريثة تأخذ نصيبها في كل البقع الأرضية مما عرض الأرض إلى بداية مسلسل التفتيت.

كان هذا الشكل من القسمة ساندا قبل أن تنقرض العائلة الموسعة وتحل محلها الأسرة النووية. وهناك شكل آخر يسمى قسمة الخبزة، أي أن كل وريث يحث قطعا أرضية بكاملها تناسب نصيب الوريث الآخر، مما يخفف من عملية التفتيت. لكن نادرا ما يلجأ الورثة إلى توثيق هذه القسمة.

في هذه الدراسة، ومن خلال محاور: الإعداد للحث وجريان



العملية... سيتم التركيز على الجانب التوثيقي، نظرا لما حصل في طقوس الحرث وأدواتها من انقراض لفائدة نمط جديد من الممارسة تتميز بحلول المحراث الحديدي والجرار محل المحراث الخشبي.لذا من الأهمية بمكان توثيق كل مظاهر عملية الحرث، من أدوات، وأسماء، وطقوس.



\* ( المحراث 1 يعود الى مرحلة أمازيغ ما قبل الرومان بشمال أفريقيا ،المحراث 2 يعود الى المرحلة الرومانية ،المحراث 3 لا زال صامدا الى اليوم أما الصورة 4 فهي من منطقة باب المروج بالبرانس خلال العقد الثاني من القرن 20).

ظلت الملكية الجماعية للأرض هي السمة الغالبة وتقتسم بين أفراد الأسرة والعائلة، وأحيانا تؤدي الخلافات إلى صراعات دامية عند بداية موسم الحرث.ولتفادي هذه الازمة يتدخل الوجهاء والشرفاء وشيوخ الفلاحة في النزاعات العادية بين الملاكين من قبيل رسم الحدود ،إتلاف المزروعات من طرف الدواب وحق المرور ...

تقاس الأرض بالخدّام ، ويفصل بين القطع والملكيات بعلامات ثابتة، عادة ما تكون نبات البرواك، لأنه دائم ويتجدد باستمرار مع أولى الأمطار في الخريف.

هناك مهن وحرف مرتبطة بالفلاحة، من حرث وحصاد ودرس وتشذيب الأشجار أبرزها الحدادة لصناعة : الفأس، سكة الحرث، منجل الحصاد، حدوات (الصفائح) البغال والحمير، القادوم والمقعدة... وكذلك النجارة لصناعة المحراث ،المذراة الخشبية...



إلى حدود أوائل سبعينيات القرن الماضي ظلت الدولة تقدم دعما لا بأس به للفلاحين بالبرانس، في سياق السياسة الاجتماعية لحكومات بداية الاستقلال (خاصة حكومة عبد الله إبراهيم)، بتوفير البذور والأسمدة في بداية موسم الحرث، على أساس استخلاص ثمنها في الصيف الموالي بعد جمع المحاصيل. وأحيانا كانت تلك الديون تلغى.

## الإعداد لعملية الحرث

يتطلب الإعداد للحرث جهدا ووقتا وإمكانيات بشرية ومادية كي يمر الموسم في شروط مواتية وذلك بالقيام بالتحضيرات التالية :

1- تعيين الخماس: أمام الحاجة ليد عاملة قارة، كان صاحب الأرض يلجأ الى تعيين الخماس مقابل الشوكة كنتسبيق، أي مقدار من المال (50) الى (500 درهم تقريبا). يقوم الخماس بكل الأشغال منذ يوم قتل الحبال من الدوم والبداية في الحرث، إلى لحظة توقاف التبن مقابل الخمس من الإنتاج الزراعي.

مع مرور السنين، أصبحت العديد من العائلات مستغنية عن الخماس لوفرة أفرادها، وفي كثير من الأحيان، أصبح هؤلاء أنفسهم من فئة الخماسين لدى عائلات أخرى نتيجة عدم التناسب بين مساحة الأرض الموروثة وبين تكاثر النسل. ظواهر أخرى يجب الوقوف عليها في شأن اليد العاملة الزراعية، ومنها، على سبيل الذكر:

- الخدِيم/الخادم: لأسباب اقتصادية كالفقر، أو اجتماعية، كاليتيم، أو أمية، هناك بعض الأفراد من قبيلة أخرى سواء من داخل البرانس -الربيع- أو من خارجها، يجدون أنفسهم مضطرين للزواج الى ربع معين، حيث يتم استقبالهم وتوفير مستلزمات العيش لهم بما فيها الأمن والزواج. مقابل هذا كله، نجد الخديم يقوم بكل الأشغال الفلاحية، لكن لا يصبح عضواً في جماعة الدوار أي من الأعيان، أو عضواً بمجلس الفرقة القبلية - بولرباغ- إلا بعد استقلاله المادي واكتسابه مكانة اجتماعية تؤهله للمكانة السياسية .

- الأسر النازحة: كثيراً ما استقبلت قبيلة البرانس أسرا نازحة من قبائل أخرى مجاورة مثل مرنيسة وصنهاجة، وكزناية، والتسول... وتخضع في علاقتها مع العائلة المستقبلية الى نفس النظام الذي يسري على الأفراد اللاجئين لكن قد تصادف ظاهرة مختلفة نوعاً ما، بحيث توفر العائلة المستقبلية جميع ظروف الاستقرار، بما فيها الأمن والأرض الصالحة للزراعة والغرس، وفي المقابل، تعمل الأسر النازحة على توفير اليد العاملة، مثل الخماس والمقاطع الذي يتعاقد معه المالك منذ بداية الحصاد الى توقاف التبن مقابل كمية معينة من الحبوب... كما توفر الدعم السياسي والعسكري للعائلات الأخرى باعتبارها جزءاً من العائلة المستقبلية .

2 - عملية التعشاب : يقوم الخماس وصاحب الأرض وأبناؤه بتنقية الأرض من كل الأعشاب والأشواك، ثم حرقها تمهيداً للحراث. في هذه العملية يستعمل المنجل والتفوركا وهي عود طويل بفرعين في طرفه.

3 - التطواع: قبل عملية الحراث يقوم الفلاح بتدريب الدابة (بغل، فرس/عودة، حمار، ثور، بقرة) لأول مرة على الحراث في الدمنة، أي الارض الواقعة قرب المنزل، وغالبا ما تكون تربتها خصبة ورطبة بفعل نثر روث المواشي بها سنويا، فتسهل عملية تطويع/تطواع الدابة. هنا تتدرب الدابة والمسيوطة/السياط ينزل على جسدها على ربط كلمات تسميها بمعناها المتعارف عليه عند الفلاح:

- تالالالال = أمر بالنزول الى مستوى الخط

-عالالاليد = أمر بالصعود الى مستوى الخط

-هووووووه = أمر بالتوقف

- دوووووور = أمر بالرجوع من تيريرة أي اخر الخط للبدئ في الخط الموالي .



- الزوج الحولة: مكونة من بغل وثور، أو بقرة، وهي تصلح للحراث في التضاريس الوعرة (الدير)، لأن أظلاف البقر تتمسك جيدا بالأرض، أفضل من حوافر البغال، وبذلك يشد الثور البغل إلى جهته، عندما يكون فوق الخط.

- ثور الحراث: يُختار ثور جيد ويخصص للحراث والقلب، فيخضع للإخصاء، بنزع خصيته في عملية بسيطة على يد شخص مختص، وبذلك يفقد الهرمونات الذكورية، فيقل هيجانه ويكبر حجمه... لكنه يفقد متعة تخصيب البقرات!

4- قتل الحبال للحراث: تكون مناسبة للتعاون والترفيه، ويشترك فيها الأقارب والجيران والأصدقاء بعد أن يكون الشخص قد هبأ الدوم من أزلاكاون- كمية من الدوم مربوطة بحبل بطريقة لا تخلو من إبداع-التي جفت فوق السطح خلال الصيف. ولكي يكون الدوم متينا، يجب أن يقلع بعد شهر غشت (بالغ).

5- صنع المحراث: يتطلب الأمر وجود شخص مختص (مَعْلَم) له خبرة في الحراث وفي النجارة وهندسة التوازن.

6- تَهْنَأُ السَّكَّةَ وَالْفَأْسَ: قبل موعد الحرث، يتفقد الفلاح الأدوات الحديدية كي يحملها إلى لَمْعَم/ الحداد، إما في مشغله بالدوار نفسه، أو إلى السوق الأسبوعي، وهي حرفة لازمت منذ القديم النشاط الفلاحي وغيره . وجعل الفأس والسكة حادتين يسهل عملية الحرث والتفواس ويقلص من الجهد المبذول من طرف "الزوج" والفلاح، وبالتالي الاقتصاد في الجهد والوقت .

7- تَغْيَارُ البُغَالِ وَالْفَرَسِ: يصطحب الفلاح الدابة الى الحداد بهدف تغيير صفائح حوافرها كي تكون جاهزة للحرث . لكن العملية لم تكن تشمل الكثير من الحمير وقد يكون السبب هو قلة الامكانيات عند البعض، فضلا عن الحجم الصغير لحوافرها.

8-مكونات المحراث الخشبي : النعالة ، التّمون ، الجباد ، تافروت ، الفطولي، الشبابة، التّابع، السّكة ، المَكْتَر، الودّناين ، الدّير ، البريدعة ، أسغاس، العناق، الجلايل، حبل الرّد، الطّارفة، زاكلو، أشبائي، الخشبة . وهي مواد مصنوع بعضها من الجلد وبعضها من الخشب والآخر من الحديد ثم الدوم.



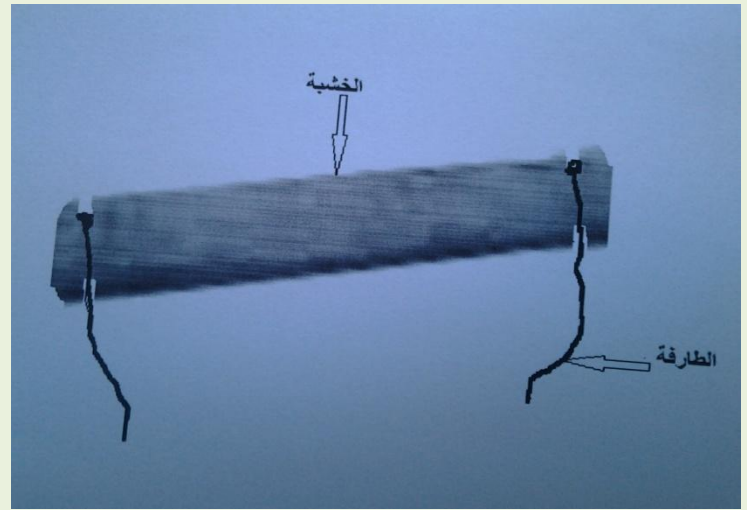
المحراث



البريدعة



زاكلو



الخشبة

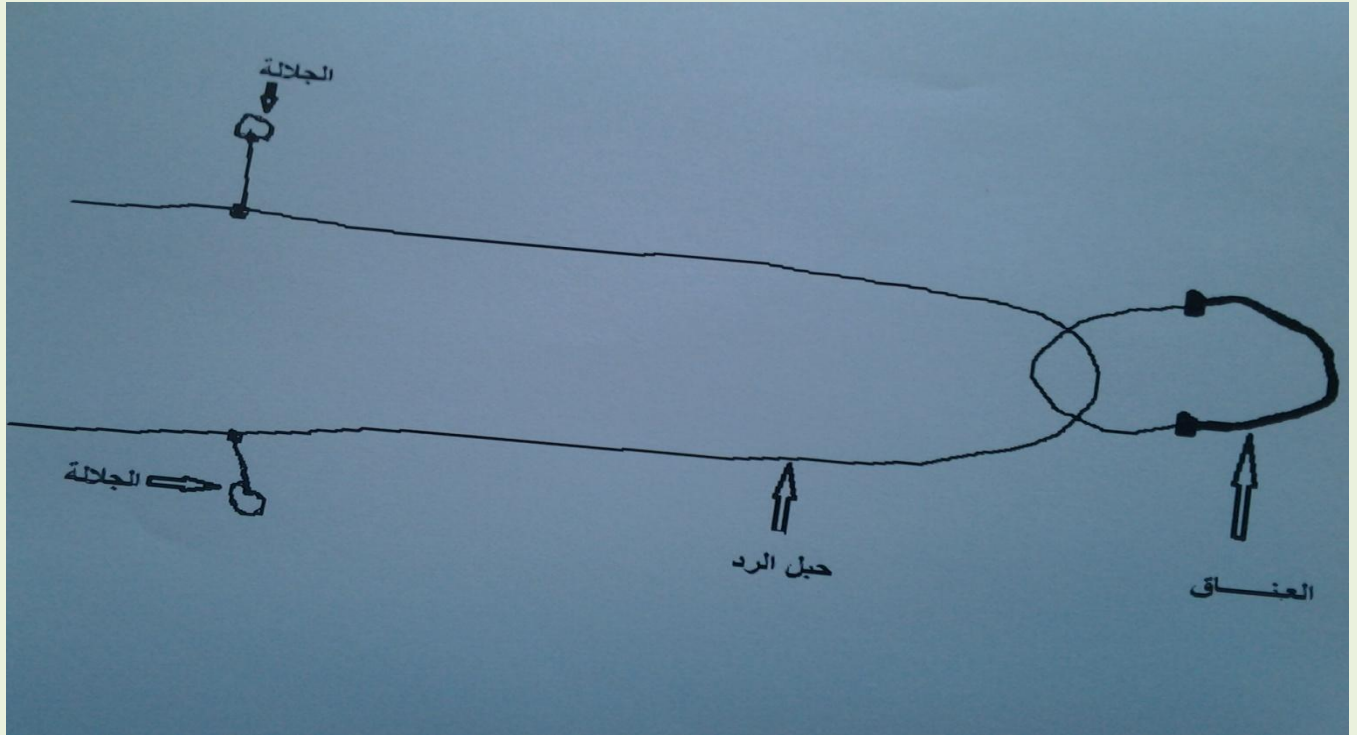
توضع "الخشبة" فوق عنق البقر بينما "البريدعة" فوق عنق البغال والحمير والفرس وكلاهما يقومان بنفس المهمة أي المساعدة على جر المحراث وهما مربوطان بحبال متينة بأداة خشبية تسمى زاكلو الذي يعتبر القاسم المشترك بين جميع الدواب حيث يوضع تحت بطنها .

يقوم الفلاح الخبير بشؤون الحرث التقليدية بالسهر على أدق التفاصيل الخاصة بأدوات العمل التي يجب أن تكون متجانسة ومتكاملة لأن كل تهاون أو تغيير في هندسة الأشياء وتقنياتها قد يؤدي إلى كارثة : ضياع المحراث أو وقوع عطب بالدواب .

يقوم الفلاح بالتحكم في قيادة عملية الحرث بأمان عبر أداة تسمى حبل الرّد الذي يعتبر مقودا ويتكون من:

-العنّاق وهو مشتق من كلمة العنق ومفادها وجود أداة عبارة عن حبل طرفه الأول به قطعة من عود شكلها نصف دائري تلتف حول عنقه والطرف الاخر مربوط برأسي الدابتين .

-الجلّالة : هي حبل صغير مربوط بحبل الرد وذيل الدابتين . تساعد الجلالة الفلاح على التحكم في قيادة الدواب عبر التحكم في حبل الرد كي لا يسقط على الارض ...



- 9-البَدّارة: قفة مستطيلة الشكل مصنوعة من ضفيرة الدوم، توضع بها حصة من الزريعة (البذور)، تعلق بحبل على كتف الفلاح الذي يزرع بانتظام حسب ما تتطلبه المساحة الأرضية مع احترام الحدود. وغالبا ما يقوم بهذه العملية شخص ذو خبرة.
- 10- بوفنشيل: عبارة عن قطعة حديد مقوسة من الأعلى بزاوية قائمة، مثبتة في طرف عصا، وفي الطرف الآخر من العصا حبل، يسمى لمسيوطة (من السوط). ويستعمل بوفنشيل في تنظيف ما علق من تراب وأعشاب بالجانب السفلي للمحراث الملتصق بالأرض أي السكة والأذنين... بينما يستعمل الحبل للهش على الزوج وتوجيهها.



سكة المحراث

بوفنشيل

البدّارة

- 11- العفّاس (أعفاس، أمازيغية): نعل من جلد البقر الخام، يفصل على حجم القدم، ويربط بحبال من الدوم، بعد لف القدم في خرق من الثوب. جيد للحراث، لأن التراب المبلل لا يعلق به، كما يحافظ على دفء القدم. كان مستعملا إلى حدود أواخر السبعينات من القرن الماضي.

في بديّة 1970 كان العديد من الأشخاص يأتون من كل النواحي إلى سوق ثلاثاء الترابية ، كان بعضهم يأتي حافيا ويضع قدمه على جلد بقرة منشور على الأرض كي يقوم البائع بتحديد العبار - 40 ... 50 سنتم - ويقص الجلد ثم يضع في جوانبه ثقوبا. يسلم بائع الجلد للشخص العفاس والحبل مقابل درهم أو أكثر حسب وضعية السوق.

العفاس خاص بموسم الحرث، وكانت هناك نعالة الحلفاء/نعل خاصة بفصل الصيف والأيام العادية. كانت تصنع من ضفيرة الحلفاء وينتعلها الذكور كبارا وصغارا، لكنها وكما هو حال العفاس، انقرضت بسبب غزو البوط/الحذاء البلاستيكي للمجال القروي.

كان الفلاح يلبس خلال العمل جلبابا خشنا ويضع حزاما على البطن عبارة عن حبل من الدوم أو الحلفاء ليسهل عليه العمل والتنقل أيام الحرث.

## انطلاق عملية الحرث: الجهد والبركة

إذا كان الفلاح لا يتوفر على زوج، يصبح مضطرا للاتفاق مع فلاح آخر قصد حرث الارض بأدوال (التداول)، أي توزيع الايام بينهما طيلة عملية الحرث، وكل فلاح يساهم بدابة واحدة تسمى الفرد حيث يقال: فلان كرن مع فلان فالحرث.

قد يلجأ البعض إلى طلب مساعدة الاخرين في ما يسمى بتوازة/التويزة. توازة أي العمل الجماعي تقام أيضا وبشكل تلقائي لفائدة مسجد الدوار وبعض الوجهاء والأشخاص المحتاجين...

**الدور/الدور:** لتفادي إرهاق التربة، تزرع الأرض سنويا بالتناوب بين الحبوب والقطاني. وأدرك الفلاحون هذا الأمر بفضل خبرة التجربة الطويلة، ذلك أن جذور بعض القطاني (خاصة الفول) تركز الفوسفات في التربة، ما يجعلها أكثر خصوبة لاستقبال الحبوب في الموسم الموالي.

وبالإضافة إلى هذا التناوب حول أدوار الحبوب والقطاني، قد تترك الأرض خلال موسم بدون حرث، كي تستريح، وتجدد التربة طاقتها (في هذه الحالة يقال جامّة، أو جامية). وبفعل الخبرة الطويلة، حدد الفلاحون منازل /أوقات الحرث والحصاد ببعض الظواهر الطبيعية وهجرة الطيور:

أيلا طلعت النريا مع لعشا، ارمي الفول بالكمشة. والتريا (النريا) هي كوكبة نجوم معروفة يختلف وقت ظهورها في السماء حسب حركة الأرض. في منتصف فصل الخريف تظهر من الشرق بعد غروب الشمس بحوالي ساعة. مع منتصف فصل الخريف يظهر الطائر المهاجر المعروف محليا باسم

"طيرة الحرث La Bergeronnette"، يتبع "الزوج" ليقفات بالحشرات التي يكشفها قلب التربة بالسكة عند الحرث. ويقال كذلك: جات الوراما، وجابت المنجل فخراما. فطائر اليمام المهاجر، يصل إلى بلاد البرانس في شهر أبريل، إيذانا بنضج الشعير.

**1 - التّسوّاط:** إنها بداية عملية الحرث حيث يقوم الفلاح - بالزوج الجارة للمحراث - برسم خطوط طولاً وعرضاً في المرجع أو المطيرة، وذلك بهدف القيام بزرع الزريعة أي الحبوب في المكان/المربع أو المستطيل المناسب، دون تجاوزه إلى المربعات الأخرى أو أرض الجوار.

**2- الزّريعة:** يتطلب تثبت الحبوب أي زرعها حنكة وتجربة كي يتفادى الفلاح التجاوز أو النقص . كمية الحبوب يجب أن تنثر في المطيرة - قطعة الارض مستطيلة الشكل- بنظام يوافق حجم المساحة. إنها مرجع لكلمة الزرعة عند الفراجية.

صالحة تامرة: من العادات الجميلة المرافقة للحرث، تمارس عند "النزول" أي اول يوم من الحرث في الدمنة - الارض المجاورة للمنزل ، عادة قرب الدار والندار، فزرع مع الحبوب الأولى كمية من التين الجاف والزبيب (والتمر، إن توفر)، يلتقطها الرعاة. كما تثبت رمانة في قرن الثور،

إذا كانت الزّوج حوّلة، أي مكونة من بغل وثور، أو بقرة.

إنه تفاؤل ببداية موسم فلاحي خصب وجيد كما توحى بذلك تسمية هذا التقليد صالحة تامرة.

يستحضر الفلاح البعد الديني عند بادية كل يوم حرث، بالصلاة على النبي، والتوسل بسيدي بلعباس، الذي يعتبر شفيع الفلاحين .

وعموما، يعيش الفلاح حالة قلق دائم، أمام الخوف من تقلبات المناخ والأفات الطبيعية (جفاف، كثرة الأمطار، جراد، حرائق). لذلك يقال إن الفلاح نادم في جميع الأحوال، فإذا كانت السنة جيدة يندم، لأنه لم يحرث أكثر مما فعل، وإذا كانت سيئة، يندم لأنه ضيع حبوب البذور بدون نتيجة.

كما صيغت أقوال تعبر عن هذه الحالة: لا دقون عثرة، حتى يكونوا فالتيس.

لا دقون الصابا مضمونة، حتى دكون فالمطمورة مخزونة.

تذكر الرواية المحلية أن رجلا في عين ثلاثة (فرقة أولا اجرو) كان يضع صورة كاريكاتورية لبداية يوم الحرث، بقوله: أي ي... الماشي يندب والماجي يندب، ودصلى على النبي كامل يكجدر!

**3- التّفّواس:** كلمة مرجعها الفأس وهي تعني أن اليد العاملة البشرية تستعمل الفؤوس لتصاحب الزوج في عملية الحرث وتقوم مقامها أينما

عجزت: المرح ، الاحجار ، الأشواك مثل السدرة والدوم...

4- الكزيرة: كلمة أصلها الجزيرة وتعني المكان الذي لا يمكن للمحراث المجرور بالزوج المرور منه بسبب وجود أحجار أو نباتات البرية مثل الدوم . هنا يأتي دور الفواس، وهو الشخص الذي عليه القيام بعملية التفواس باستعمال الفأس قصد - نقش- تهيئة المواقع غير المحروثة . في كثير من مناطق البرانس، وأمام الحاجة إلى أراض جديدة لكنها غير صالحة (بور وغابات ومرج) كان للفواس دور كبير في تطويع الأرض مقارنة مع اليوم.

5- التكلاد: بعد الانتهاء من حرث قطعة أرضية (مطيرة أو سوطة أو مَرَج)، يكون الفلاح مضطرا للانتقال إلى أخرى قد تكون بعيدة شيئا ما، وفي هذه الحالة وبعد جمع لوازم الحرث ووضعها على ظهر الدابة ، يزيل السكة من-النعالة دالمحراث- أي الجانب المتصل بالأرض، ويتوجه بالزوج تاركا وراءه خطا غير عميق طوال رحلته نحو المطيرة الجديدة .

6- مبيت المحراث: لتفادي حمل المحراث إلى منزله البعيد أو سرقة أو انقراض الحيوانات اللاحمة (كلب، ذئب، ثعلب)، على مكوناته المصنوعة من الجلد (أشباي)، وأكلها، يعمد الفلاح إلى إيداع المحراث عند صاحب أقرب منزل شرط ان تكون علاقته به جيدة، هذا في حالة تمسكه بعدم المبيت رغم الحاح الآخر .



من بين العادات الإيجابية التي لا زالت قائمة، نجد السكان المجاورين للأرض يتكفون بإطعام الفلاح طوال الفترة التي يقضيها هناك. وكرد فعل إيجابي على هذا الكرم يسمح للأقرب برعي مواشيه فيها ولم لا حرثها في الموسم اللاحق ببذور القطني . في بعض الأحيان التي تكون فيها العلاقة غير سليمة نجد صاحب الأرض يكلف شخصا آخر باستغلالها في الرعي أو الحرث أو هما معا وهو ما يعتبر إعلان حرب مفتوحة على جار الأرض التي يعتبرها مجالا حيويا له. دخول البراني/الأجنبي إلى هذا المجال هو بمثابة اعتداء على الشرف وبالتالي تكون تداعياته خطيرة قد تصل إلى القتل في حال عدم تدخل ذوي النيات الحسنة من جماعة الدوار أو الشرفاء.

7 - حبال الزريعة: لضبط كمية الحبوب المزروعة يقوم الفلاح بقتل حبال

بحسب عدد أنواع الحبوب ويعلقها في خزانة الأواني المنزلية أي المرفع، وكلما زرع كمية معينة، يعقد ما يناسبها من العقد بالحبل المخصص لها - مد يساوي عقدة- وبهذه الطريقة، يتوفر على سجل طوال موسم الحرث يستغله في المقارنة بين ما زرعه وبين المحصول بعد الدرس خلال فصل الصيف.



## اساطير وحكايات: ضبط المجتمع

ارتبطت بالنشاط الفلاحي قصص وحكايات وأساطير تعكس تصور الإنسان للعلاقة مع الأرض والطبيعية، من جملتها أن دعوة الفلاح، وهو عرقان- العرق- من الجهد، تكون مستجابة، وأن الغش والاحتيال تكون له عواقب وخيمة على صاحبه. فكثيرا ما كان يلجأ الشخص الذي يعتبر نفسه مظلوما بفعل اعتداء ما على حديقته أو اشجاره مثلا الى الفلّاحة أي الناشطين في الفلاحة كي يرفعوا معروف أو دعوة النص... إنها الدعوة التي يهابها الجميع وقد كانت إلى وقت قريب آلية فعالة في ضبط السلوكيات وتنظيم المجتمع المحلي والحد من الاعتداءات والنزاعات . كانت القُوبَع (القبرة) تسكن أسفل جرف صخري (صف)، وتمارس الفلاحة لإعالة أسرته. مرت سنون على تلك الحال، وهي في غاية السعادة، إلى أن حل بالمنطقة ذئب، واهتدى إلى حيلة لاستغلال جهدها.

أوهم الذئب ضحيته القوبع أن الجرف على وشط السقوط، وفي ذلك هلاك لها ولفراخها. قررت الرحيل لكنه زعم أنها لن تجد أرضا خصبة وآمنة في مكان آخر. ما العمل إذن؟ إقترح عليها أن يتولى إسناد الجرف كي لا يقع بينما تستمر هي في الفلاحة، وفي الصيف يقتسمان المحصول. تظل القوبع تعمل وتكد، والذئب نائم أسفل الجرف، يهضم ما اصطاده من طراند خلال الليل. في الصيف، يأخذ الذئب القسم الأكبر من المحصول، ولا يترك للقوبع إلى كُرْفَة- ما تبقى في النادر/البيدر بعد عملية خزن الحبوب -

لما ضاقت درعا بهذا الوضع، اشتكت أمرها إلى السلوقي، فاتفقا على خطة، وقال لها "موعدنا في النادر".

كالعادة، أخذ الذئب لنفسه ما أراد، فطلبت منه القوبع أن يقسم بما تحت القفة بأن تلك القسمة عادلة. بكثير من الثقة في النفس واجهها الذئب قائلا: اشْنَا مَا شِي يُكُونُ تَحْتْ هَاذُ الْقَفَّة؟ وقذفها بقنمته.

لما رأى السلوقي تحتها انطلق هاربا، فلحق به إلى أن أمسكه وفتك به، وتحررت القوبع من الاستغلال.

مغزى القصة: الغش مرفوض، والغشاش منبوذ، ومصيره الهلاك.

هي أسطورة فعلا لكنها غالبا ما تنتج أثرها في الواقع اليومي لحياة الناس. فمالك الأرض الذي يشغل الخماس طوال السنة والمقاطع خلال فترة الحصاد والدراس قد يجد نفسه وبشكل تلقائي مضطرا لاحترام بنود الاتفاق الشفوي الذي يربطه بالآخرين.

## الأرض، الحرث والفراجة: علاقة العرق والشرف والإبداع الشعري

لما كانت الفلاحة هي النشاط الرئيسي للبرانس، فقد كان طبيعيا أن يشكل كل ما يرتبط بهذا النشاط موضوعا غنيا على مستوى الرموز في الحياة اليومية، بجمولة بيداغوجية وفنية، من خلال الأمثال والغناء، وغيره من أشكال التعبير.

شكلت الأرض وعملية الحرث بالنسبة للفراجية البرانس- كما هو حال الفراجية بقبيلتي التسول والحيانية - مجالا خصبا للإبداع الزجلي المرتجل. إبداع تحضر فيه كل أساليب وتقنيات قول الشعر من استعارة وتشبيه وطباق... بحيث لا تخلو مناسبة ما إلا وكان للأرض والحرث بطقوسهما الرمزية وتجسيداتهما المادية من تأثير على الفن البرنوسي.

وكنموذج نتطرق الى جزء مما دار في عرس/ حفل أقيم من طرف عائلة الحاج موح بالكوزات بقبيلة أوربة البرنوسية أواسط الثمانينيات من القرن الماضي. كان هناك فريقان غير متكافئين من حيث العدد. فرقة بني أفتح البالغ عددها عشرة اشخاص بقيادة الشيخ علال ددريس (فرقة) مكونة من شخص واحد فقط اي الشيخ امحمد الرهيف الوربي. كان على هذا الأخير وفي غياب سطره/مجموعته الخاصة أن يصد كل هجمات مجموعة بني أفتح.

في زرعة/قصيدة علال الهجومية ينشد:

...

كُلْ هَا وَدِي أَيْسَلَمْ عَلَى جِيرَانُو

الهرنان ماضين سنانو



آآآآآآ زَعْرَتُو بَاشَ اللَّيْلَةَ دَزَيَانَلُو  
 آآآآآآ عَيْنَاكَ كُوخَلِينُ يُقْتَلُو  
 وَدَاكَ الشَّنَائِفُ حَوْمَرِينُ يَهْبَلُو  
 حَبِيبُكَ كِي دَعْمَعَلُو  
 حَرَجَ الْكَلَامِ مَنْ فَآكُ وَيَجِينِي حَلُو  
 أَنَا امزَاوَكَ الرَّهِيْفِ، هَادَ الْحَرَشَ غَيْرَ اصْبِرَلُو  
 أَوْلِيدِي الْخَبِيبَ لِأَيْدِ كَارَوَاتِ نَزَلُو  
 وَيَحْرَا نَشْبَطُ الْبَقْرَ فَرَاكَلُو  
 إِلَى أَن يَقُولُ:  
 الرَّهِيْفِ وَاجِدْ غَلِيكُمُ  
 حَتَّى وَحْدَةَ مَا دَشْبَاكُمُ  
 رَاهَا الْعَيْنَ أَدْهَرُبُ زُوْلَ لِيْلِكُمُ  
 آآآ الرَّهِيْفِ، أَنَا طَائِعٌ وَأَمْسَلَمُ لَكُ  
 وَمَعْلُومٌ حَيْثُ لَعْنَدُكَ  
 وَيَنِي أَفْتَحُ وَعَلَالُ جَاتُ دَعَاوُنُكَ  
 بِأَزْلُكَ أَذْكَابِلُ الْبِلَادُ بُوْحَدُكَ أَرْهِيْفِ.

في هذه الزرعة/القصيدة الطويلة وكما هو معروف عن الشيخ علال شاعر الغزل بامتياز، الدبلوماسي اللبق والتاجر السابق في الأتواب بالأسواق يحاول اقتحام قبيلة اوربة / المجال الخاص للشيخ الرهيف عبر توظيف الاليات التالية:

- دعوة النساء الحاضرات في العرس لتشجيع الشيخ عبدالقادر الهرنان الفراجي المسالم والمتميز بالصوت القوي والجميل وذلك عبر إطلاق الزغاريد كلما زرع / نظم قصيدة.

-استعطاف الشيخ الرهيف كي لا يواصل مواجهته للشيخ الحرش المختص في المغيور/ اللخخ اي الهجاء الذي قد يصل الى ما لا تحمد عقباه :  
 تَخْسَارُ الْعَرَسِ أَي نَهَايَةَ الْحَفْلِ الَّذِي قَدْ تَحَدَّثَ فِيهِ أَعْمَالٌ عَنَفٍ...

-الإعلان عن الطاعة والاستسلام للشيخ الرهيف خاصة وأن فرقة بني افتح ضيفة بالكوزات بقبيلة اوربة التي استضافت في السابق إدريس الأول ولا زال فرعها بالبرانس يحيي هذه الذكرى كل سنة في موسم يعرف حاليا باسم البرية شمال تازة.  
 - اللجوء الى الاستعارة كأسلوب أدبي متميز في الإبداع كي يتمكن من غزو العقول والقلوب والمشاعر:

أَوْلِيدِي الْخَبِيبَ لِأَيْدِ كَارَوَاتِ نَزَلُو  
 وَيَحْرَا نَشْبَطُ الْبَقْرَ فَرَاكَلُو

...

وَيَنِي أَفْتَحُ وَعَلَالُ جَاتُ دَعَاوُنُكَ  
 بِأَزْلُكَ أَذْكَابِلُ الْبِلَادُ بُوْحَدُكَ

علال إدريس الفنان والتاجر فلاح كذلك وعلى علم بتفاصيل عملية الحرث وأدواتها -الزوى اي المطر،النزول اي بداية الحرث،البقر، زاكلو...  
 ولهذا يستعين بها كي يواصل غزو/حرث أرض الكوزات في أمان.

-النزول أي البداية في الحرث تتطلب نسبة معينة من الأمطار/ الأرض مروية.

-استعمال زوج البقر في عملية الحرث افضل من زوج البغال لكون الاولى لها أظلاف منقسمة الى شقين وتسهل تمسك الثور والبقرة بالأرض رغم صعوبات التضاريس عكس البغال التي لا تقاوم مما يؤثر سلبيا على سير عملية الحرث.

- حرث الأرض ذات المساحات الكبيرة أو تأمين حدودها من طرف شخص واحد شبه مستحيل مما يفرض عليه الاستعانة بالغير. هنا يتدخل -

الشيخ علال كي يقدم خدماته على رأس فرقة بني افتح مستغربا / متعجبا كيف يستطيع الشيخ الرهيف القيام بذلك لوحده !  
"بَارَ لَكَ أَذْكَابِلَ الْبِلَادِ بُوْحَدْكَ" ، "عَيْشُوا عَلَى خَاطِرِكُمْ، رَاهِ الرَّهَيْفَ وَاجِدْ غَلِيكُمْ" ، في قول علال جاءت في سياق "حراسة النساء" ضد الأعراب  
والدخلاء، وليس الأرض.

رد الشيخ الرهيف في الحين لم يخل من الاستعانة بكلمات استقاها من قاموس الفلاحة والحرب ليوظفها في الزجل البرنوسي. يرفض إشراك بني  
افتح في حرث الأرض ويشهر المقاومة المسلحة وترساتها العصرية للدفاع عن العرض والشرف قائلا؟؟؟ :

أوليدي أعلال بالمعنى هَضْرَتْ عَرَفْتَكْ

أوليدي أعلال راني عارف شايْنُ فُبَالِكْ

وَقِيلَا أَنْتِ اطْمَعْتِ بَاشْ نُشْرَكْكَ

أَخَايَ الْهَرْنَانَ خَلَيْنِي أَوْدِي

جِيَتْ نُكَافَحْ عَلَى أَرْضِي

بَعْدَ نُمُوتِ فَالْبَارُودِ غَيْرِ بُوْحُدِي

هَادِي لَا اضْتَشَايَ بَاشْ نُرَانْدِي

وَأَنَا الْبَارُودِ مَنْ سَعْدِي

وُخَلَيْنِي نُرِيدُ بِيْدِي

وَفَايْنُ رَاكُ الْحَاجِ أَكْبُدِي

رَوَلِي الدَّورِ مَنْ يَدِي

قَبْلَ لَا نُمُوتُ أَبْرُدِي

وَالْمَدْفَعِ مَاشِي عُنْدِي

وَدَابَا دُصِيْبِيْنَكُ مَنْ سَعْدِي

أَجِي فَايْنُ رَاكُ الْمَكْحَلَا لِي سَعْدِي

وَكُ أَدْسَمُو بِالرَّهَيْفِ بُوَانْدِي

أَجِي الْمَرْشُومَةَ بَحَالِ الْفَرْدِي

دُوْحُ أَنْبَرْمَكُ فِ يَدِي

بَخْرَا دَعْرَفُو بِالرَّهَيْفِ بُوَارْدِي

العرض/الشرف والأرض مجالان متلازمين في ثقافة المجتمعات التقليدية – الرَّاجِلُ أَيْمُوتُ عَلَى أَرْضُو وَعَلَى عَرَاضُو- ولا مجال للكلام فيهما.

يتجاوز الكلام هنا الأرض كشيء ملموس ليأخذ البعد الآخر أي نساء قبيلة أوربة . ولهذا لا مجال لتلبية رغبة الشيخ علال وفرقته في ولوج

المناطق المحرمة والخاصة واستباحة النساء والشرف. وإن اقتضى الأمر من الشيخ الرهيف حارس المقدسات اللجوء الى أحدث الأسلحة التي

لازالت قبيلة البرانس تتذكرها أيام المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي: البارود، الفردي، المدفع ، نراندِي، بواردي...

ومرة أخرى يحاول علال تثبيت نهجه الهجومِي الغزلي معلنا عن قرب سقوط قلعة الشرف أي الدَمْنَة قائلا:

وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ فَالْأَلُوفَاتُ أَيْغُرْمُ

أَنَا طَايِعٌ لِلرَّجَالِ مُسَلِّمٌ

بَنِي افْتَحْ وَوَرَبَةَ جِينَا لَعْنُدْمُ

عُنْدِي شَيْ كَلَامٌ مَنْظَّمُ

أَنْتِ مَسْفِيَّةٌ بِالسَّمِ

بِاللَّهِ يَا دَعَطْتُو غَلِيهِمْ لَا خُدْمُ

الْحَاجِ مُوحُو كَابِلُ هَاذِ بِنَادْمُ

رَأَحْنَا فَرَابِينَ لِلدَّمْنَةِ فُتْنَقَالَ الرَّجْمُ

ولمواجهة جراءة علال يوظف الرهيف الجانب الإيجابي للزوج الحوالة المكونة من البغل والثور في حرث الارض كيفما كانت تضاريسها :

أيا الشبيخ المشكور

بُحْدِيَّتِي وَرَانِي مَحْقُورُ

وَقَلْبِي قِبَالَةَ مَعْقُورُ

خَلَّيْنِي نَكَرَنَّ الْبَعْلُ مَعَ التَّوْرُ

بَحْرًا مَنخَلْشَايَ فَبِلَادِي الْبُورُ

قَلِّكَ يَاخَاي الْهَرْنَان

نَرَبِطُ الْبَعْلُ وَالتَّوْرُ

وَنَحْرَتُ حَتَّى الدُّيُورُ

وَنَصِيبِي هَادِ الدَّوْرُ

وَالْمَوَاطِنَةَ خَلِيُوهَا لِلطَّرَاكُطُورُ

لم تكن عملية الحرث قبل عقود خلت بطقوسها وأدواتها مجرد عمل روتيني سنوي هدفه الانتاج المادي وإشباع حاجيات فيزيولوجية فقط بل شكلت كلا متكاملًا في حياة الناس الواقعية والمعنوية والفنية.

\* الصورة 1 و 2 : انظر كتاب كابريل كامبس : أصول بلاد البرابر ، ماسينيسا أو بداية التاريخ . تعريب العربي عقون . منشورات المجلس الاعلى للغة العربية . الجزائر . ص:109 و 112.